رحلـــة
مع القلم

حدث هذا فى صيف عام «١٩٣٠».. كان يوما شديد الحرارة من أيام شهر يوليو.. عاد «نجيب محفوظ» مسرعا إلى بيت أسرته بالعباسية وهو يكاد يطير فرحا.. دق الباب الخارجى دقات سريعة متتابعة، ثم دخل مندفعا ناحية أمه وانحنى يقبل يديها فرحا وهو يقول:

- نجحت.. نجحت يا أمى وأخذت شهادة البكالوريا[1] حصلت على ٦٠٪ وترتيبى العشرين على مدرستى..

واندفعت الأم تحتضن ابنها وتقبله، وتطلب من «الخادمة» أن تطلق زغرودة فرحا بهذا النجاح الباهر.

فى موعد الغداء عاد الأب من عمله ليستقبله «نجيب» عند الباب ويزف إليه البشارة.

- ٦٠٪.. نتيجة رائعة.. ألم تجعلك هذه النتيجة تغير تفكيرك وتلتحق بكلية الحقوق.. إن مجموعك هذا يتيح لك فرصة المجانية طوال سنوات الدراسة.

وصمت «نجيب» ولم ينطق بكلمة.. فهذا حديث معاد.. حوار

(١) شهادة البكالوريا هي ما يعادل الآن شهادة الثانوية العامة.

مضى فيه مع والده أكثر من مرة.. فالوالد يتمنى أن يترك ابنه موضوع الفلسفة هذا الذى يريد أن يدرسه فى كلية الآداب، وأن يلتحق بأى كلية أخرى.. لقد أصر الفتى على أن تكون دراسته الثانوية فى القسم الأدبى.. ورفض دراسة الهندسة أو الطب.. لكن الفرصة مازالت سانحة لدراسة الحقوق.

ولمح الأب فى عينى ولده إصرارا على ما عزم عليه. ولم يشأ أن يفسد عليه فرحة نجاحه.. ثم توجه إليه بالسؤال:

- وماذا عن هدية النجاح..؟!

صمت الفتى قليلا وابتسامة الفرحة ترتسم على شفتيه، ثم قال:

- إذا أذنت لى يا أبى فإنى أرغب فى الذهاب إلى الإسكندرية.. سأقيم عند صديقى «إبراهيم فهمى دعبس».. وأنت تعلم أن أسرته تقيم فى قرية قريبة من الإسكندرية.. نقضى نهارنا عند البحر.. ونبيت فى بيتهم.

ابتسم الأب موافقا.. ودس يده فى جيبه ليخرج ورقة نقدية من فئة العشرة جنيهات.. أعطاها «لنجيب».

- عشرة جنيهات؟؟؟ إنك بذلك سوف تفسد الولد.. إن مرتب الموظف الحاصل على البكالوريا لا يصل إلى ستة جنيهات ينفق منها الرجل وأسرته طوال الشهر.. وربما وفر بعض المال للطوارئ.

كان هذا هو تعليق العم - عم «نجيب محفوظ» - الذى توجه

بحديثه إلى أخيه، وقد اتفقت معه الأم فى هذا الرأى.. وثارت وعارضت ما صنع زوجها.

لكن الأخير كان سعيدا.. لم يأبه لمعارضة أخيه ولا زوجته.. ففرحته بنجاح ابنه.. وتفوقه.. جعلته يصر على أن يقدم له هذه الفرصة كى يقضى شهرا كاملا مع صديقه فى مدينة «الإسكندرية».

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

ومضت أيام الشهر سريعة متتابعة ليعود «نجيب» إلى القاهرة، ويستعد لبدء العام الجامعى ١٩٣٠ - ١٩٣١.. وهو عامه الجامعى الأول..

بدأت رحلة نجيب محفوظ مع الكتابة مبكرة، ففى سنوات الدراسة الابتدائية أعاد كتابة القصص والروايات التى كان يقرؤها.. كان يعيد صياغة الأحداث ويضيف إليها ويحذف منها ويكتب اسمه على الغلاف.

ثم كتب قصة حياته «الأعوام» مقلدا «د. طه حسين» فى «الأيام».. لكنه ومع قرب نهاية سنوات التعليم الثانوى، بدأ نوعا آخر من الكتابة، عندما خرجت دائرة القراءة من القصص البوليسية والمغامرات لتدخل دائرة الفكر.. هذه الدائرة التى دخلها مع «العقاد» و«أحمد أمين» و«سلامة موسى» و«طه حسين» وغيرهم.. فمع هؤلاء اكتشف الفتى الطموح أن فى العالم أفكارا ومفكرين يبحثون

ويكتبون عن أشياء مجردة لعل أهمها سر الوجود.. هذه الفكرة التى دفعته لاتخاذ قراره المهم بالالتحاق بالقسم الأدبى فى الدراسة الثانوية، تمهيدا لدراسة الفلسفة فى كلية الآداب.

وجد «نجيب محفوظ» أن هذه القراءات قد اتسعت كثيرا فلماذا لا يبدأ رحلة الكتابة.. كتابة مختلفة عن هذه التى بدأها مع قصص «ابن جونسون».

وبدأ يكتب المقالات.. يلخص الكتب التى يقرؤها.. يعرّف بالمفكرين والكتاب الذين قرأ لهم..

فى مظروف صغير يضع «نجيب» مقالته بعد أن يمهرها بتوقيعه، وعلى صفحة المظروف يكتب اسم واحدة من الصحف أو المجلات التى يشعر أنها قد تهتم بما كتب، ويضع المظروف فى صندوق البريد.. أسبوع أو اثنين ويقرأ مقالته منشورة.. ممهورة باسمه.. صحيح أن كثيرا من هذه المجالات والصحف كانت محدودة الانتشار، إلا أن فرحة الفتى بأن يجد هذه الاستجابة السريعة من رؤساء التحرير «المثقفين» أعطته ثقة بنفسه، ودفعته إلى الاستمرار.. بل وشجعته على أن يرسل نماذج من قصصه القصيرة إلى بعض المجلات الأدبية.

[كان أهم يوم فى حياتى يوم ان نشرت لى قصة فى مجلة «الرواية».. كذلك يوم نشرت فى «المجلة الجديدة» لـ «سلامة موسى»[1]].

(١) من حديث لنجيب محفوظ نشره جمال الغيطانى فى كتابه نجيب محفوظ يتذكر.

كان «سلامة موسى»[1] واحدا من أشهر الكتاب التقدميين فى مصر الذين حملوا عبء تعريف القارئ بالمدارس الفكرية الحديثة، التى ظهرت فى أوروبا فى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، مثل «الاشتراكية» و«الفابية» ومذاهب الديمقراطية الحديثة وغيرها من الأفكار التحريرية.. وكان لهذه الأفكار صدى كبيرٌ عند الشباب، الذى كان يبحث لنفسه عن منهج فكرى وسياسى يناسب العصر الحديث «وقتها»..

وواظب «سلامة موسى» على نشر ما يرسله «نجيب محفوظ» دون أن يلقاه، إلى أن ذهب «نجيب» يوما ليسلم مقاله يدا بيد.. ودهش «سلامة موسى» إذ وجده فتى صغيرا فى المرحلة الثانوية.. لكن تشجيعه له استمر حتى أنهى «محفوظ» دراسته الجامعية، ثم أصبح واحدا من كتاب «المجلة الجديدة»، ويذكر «محفوظ» أن «سلامة موسى» طبع له أول رواياته «عبث الأقدار».

كانت الكتابة عند «نجيب محفوظ» هواية يفرغ فيها طاقته الفكرية، ويحقق لنفسه سعادة خاصة لا يمكن تقديرها بمال، وكان هذا النشر المجانى «شهادة» فى يده، يعترف فيها أصحاب هذه الصحف ورؤساء تحريرها بأن «نجيب محفوظ» كاتب جيد، يمكن أن يقف على المستوى نفسه الذى يقف عليه المحترفون من كبار السن.

---

(١) سلامة موسى كاتب وصحفى (١٨٨٧ - ١٩٥٨)..

وأغراه النشر باستمرار الكتابة.. وأغراه استمرار الكتابة بمداومة القراءة..

ويزداد طموح القلم.. فيتجه إلى الرواية.. نعم الرواية.. هذا الفن الحديث على الأدب العربى.. لقد قرأ نماذج متعددة من هذا الفن فى الآداب غير العربية، الروسية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والأمريكية والهندية، بل ونماذج من إبداعات كتاب أمريكا اللاتينية وأفريقيا، ومعها قرأ النماذج العربية القليلة التى سبقته.. مثل «توفيق الحكيم» و«طه حسين» و«محمد حسين هيكل».. وغيرهم.. وشعر فى داخله برغبة فى كتابة تاريخ مصر - والذى يمتد إلى ما يزيد عن ستة آلاف عام.

عاش «نجيب محفوظ» حلما بأن يكتب تاريخ مصر فى عدد من الروايات «مثلما فعل جورجى زيدان»[1].

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

ومضت سنوات الدراسة الجامعية بالتفوق العلمى والنشاط الأدبى الواضح، من خلال ما نشر فى الصحف والمجلات من مقالات وقصص قصيرة.. إلى أن تخرج فى عام (١٩٣٤).

وهنا كان لابد من وقفة مع النفس.. ففى أى الطريقين يمضى..

---

(١) جاء هذا التعليق على لسان الشيخ مصطفى عبدالرازق بعد أن عرض محفوظ عليه الفكرة.

هل فى طريق الدراسات الفلسفية التى أتم دراستها الجامعية بتفوق.. أم طريق الأدب الذى أثبت نفسه فيه فى مجال القصة والمقال والرواية.

يريد «نجيب محفوظ» أن يطرق دربا جديدا.. ليس له فيه مرشد ولا مثل.. وإذا ما بدأ الحديث بينه وبين أى شخص حول هذا الموضوع، تعجب الآخر من هذا الذى يريد أن يحترف الأدب.

التحق «نجيب محفوظ» بالدراسات العليا وحصل على درجة الماجستير فى الفلسفة.. لكن الصراع مازال فى داخله هل يلقى بقلمه بعيدا وينسى الأدب.. أم يتوقف هنا عند هذا الحد فى دراساته الفلسفية، ويتشبث بحبه وموهبته وإبداعه.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

كان عام (١٩٣٦) عاما حاسما فى حياته.. فقد اختار طريقه وحدد هدفه.. واستقرت نفسه عند «الأدب»..

«**انتصر القلم**».. وفاز حب الكتابة.. واستراح «نجيب محفوظ» لقراره.

لكن الأدب لا يكفى أحد فى مصر «لأكل العيش».. لا يكفى أن يحترف الإنسان مهنة الكتابة، بل عليه أن يكون موظفا.. يتسلم فى

بداية كل شهر مرتبا يكفيه ويكفى أسرته.. أما الأدب فهو هواية تشبع النفس وتسعد الروح.. قد يأتى من ورائها بعض المال.. لكنه غير ثابت وغير مضمون ولا يعتمد عليه.

إذًا لابد من الوظيفة..

نعم.. لابد أن يلتحق نجيب محفوظ بوظيفة تؤمن له حياته، وتوسط له بعض أقاربه فتم تعيينه فى إدارة الجامعة؛ حيث عمل عدة سنوات ثم نقل إلى وزارة الأوقاف. وبعد قيام ثورة ١٩٥٢ وإنشاء وزارة الثقافة عمل «نجيب محفوظ» فى قطاع السينما بهذه الوزارة، وتنقل بين عدة مناصب حتى بلغ سن المعاش فى عام ١٩٧١.. فماذا عن سنوات الوظيفة.

[أعطتنى حياتى فى الوظيفة مادة إنسانية عظيمة وأمدتنى بنماذج بشرية لها أكثر من أثر فى كتاباتى، لكن الوظيفة نفسها كنظام حياة وطريقة لكسب الرزق فلها أثر ضار أو يبدو كذلك.. لقد أخذت الوظيفة نصف يومى لمدة ٣٧ عاما.. وفى هذا ظلم كبير].

هكذا لخص الكاتب الكبير حياته مع الوظيفة.. واعترف بفضلها عليه فى التعرف على الأنماط البشرية.. المنافقين، البيروقراطيين الساقطين، المختلسين المرتشين، المثاليين، المتفانين.. نماذج ونماذج ليس من السهل تعرفها إلا بمعايشتها.. وأثناء عمل «نجيب محفوظ» فى وزارة الأوقاف، التقى بنماذج من المستحقين، الذين يمثلون كل طبقات المجتمع برجاله ونسائه ولكل منهم قصة خاصة به.

وهكذا كانت الوظيفة مصدرا ثريا للشخصيات التى استطاع «محفوظ» أن يوظفها توظيفا فنيا.. بل إنه كتب عن بعض هذه الشخصيات كتابة واقعية، كما هو الحال فى شخصية «أحمد عاكف» بطل «خان الخليلى».. وبطل «القاهرة الجديدة» وأبطال «أميرة حبى أنا» وأبطال «المرايا» وغيرها كثير..

.....

.....

.....

ورغم هذا الانغماس الشديد فى حياة الوظيفة.. إلا أن «نجيب محفوظ» أقام لحياته نظاما خاصا قائما على مبدأ «فض الاشتباك».. فللوظيفة ساعاتها التى تبدأ فى الثامنة وحتى الثانية.. وبقية اليوم يقضيه فى قراءة مركزة وكتابة.

لم يدع «محفوظ» للعلاقات الاجتماعية ولا لصحبة الأصدقاء ولا لغيرها من أوجه النشاط الحياتى فرصة كى تلهيه عن مهمته الأولى.. القراءة والكتابة..

للأصدقاء.. مساء الخميس فى سهرة جماعية.. ولقاء آخر فى صباح الجمعة يضم الزملاء والتلاميذ، وينقضى فى حوارات فكرية ومناقشات فنية.. بعده عودة للنظام الصارم فى الحياة.. ساعات القراءة وساعات الكتابة.

[بشىء من التنظيم والانضباط، يمكن أن ينسق الأديب التزاماته

الأدبية والتزاماته تجاه أصدقائه بحيث لا تجور إحداها على الأخرى].

«جاء هذا فى كتاب رجاء النقاش».

. . . . . .

. . . . . .

قال نجيب محفوظ إن الوظيفة أخذت نصف يومه لمدة (٣٧) عاما.. لكنى أشعر أنه لولا هذه الوظيفة ما أمتعنا الكاتب الكبير بهذه النماذج النادرة من البشر.. وما اضطر لتنفيذ هذا النظام الصارم على حياته.. الذى أعطاه الفرصة الرائعة للقراءة والكتابة المنظمة.

وغنمنا - نحن القراء - بهذه الثروة الهائلة من القصص والروايات والمقالات.

مصر القديمة .. والثلاثيـــة

سأل الأب ابنه:

- هل تستعد للحصول على درجة الدكتوراه؟

ابتسم «نجيب محفوظ» وأجاب بما يفيد النفى.. فعاد والده يقول:

- أراك جالسا إلى المكتب ليل نهار.. كأنك لم تتخرج.. لماذا ترهق نفسك يا ولدى.. إنك موظف كبير الآن.. وقد حصلت على درجة الماجستير.. التفت لصحتك يا بنى.

كان الأب محقا فيما يقول فهذا ابنه لا يكاد يُرى، إلا وهو يمسك بيده كتابا.. نعم.. لقد شعر أن سنوات عمره قد مضى منها خمسة وعشرون عاما دون أن يقرأ كل عيون الأدب العالمى، وكان لابد من تعويض ما فات.. كان يتمنى أن يقرأ كل روايات العالم.. يقرؤها مترجمة إلى العربية أو الإنجليزية. كان يريد أن يتعرف المذاهب الأدبية المختلفة، وأن يعرف الإطار الذى تنجح فى تقديمه كل من هذه المذاهب.. كان لابد أن يقرأ دراسات نقدية.. وأن يقرأ فى التاريخ.. وفى العلم.. وفى كل الفنون.. فى الوقت نفسه كان عليه أن يختار من أين يبدأ.. وما الجديد الذى يمكن أن يقدمه.

كانت مصر تعيش فى هذه الحقبة - عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضى - صحوة قومية أيقظتها الدعوات المتعاقبة للتحرر الوطنى مثل حركة «مصطفى كامل» ثم «محمد فريد» ومن بعدهم «سعد زغلول».. نبهت هذه الحركات الداعية إلى حرية الوطن والمواطن النفوس والعقول إلى ماضى الإنسان المصرى، وعادت به إلى عصور ازدهاره ومجده.. إلى عصور أضاءت تاريخ هذا الوطن.. إلى العصور المصرية القديمة.. أو «تاريخ مصر الفرعونية».

وبدأ «نجيب محفوظ» يقرأ حول هذه القرون المجيدة من التاريخ المصرى.. قرأها قراءة المتخصص.. يدرس الظروف السياسية والحروب والحياة الاجتماعية والاقتصادية.. الأزياء وأدوات الزراعة وأدوات الحرب.. يدرس الفنون والديانات.. أراد الكاتب الواعى «نجيب محفوظ» أن يعيش داخل هذا التاريخ.. وأن يعايشه وأن يخرج منه بأعمال روائية تؤرخ لهذه العصور، وتقف عند علاماتها الكبيرة وأحداثها العظيمة.

كان يقرأ.. ويقرأ.. ويكتب سطورا قليلة عن أفكار يراها مناسبة وتصلح لاقامة بناء درامى روائى حولها.. واختار ما يقرب من أربعين موضوعا..

[كان من الموضوعات التى اخترتها موضوعات عن الرعامسة[1] والتحامسة[2] وكان لدى موضوع مهم عن إخناتون].

(١) الرعامسة نسبة إلى رمسيس الأول مؤسس الأسرة التاسعة عشرة.

(٢) التحامسة نسبة إلى تحتمس الأول وهو من ملوك الأسرة الثامنة عشرة.. وهما من أعظم فراعين مصر.

وبدأ «نجيب محفوظ» تنفيذ مشروعه فكتب «**عبث الأقدار**» فى عام ١٩٣٧ ثم «**رادوبيس**» وتلتها «**كفاح طيبة**».

ويدخل «نجيب محفوظ» عالم المسابقات والجوائز لأول مرة فى عام ١٩٤٠، ويحصل على جائزة «قوت القلوب الدمرداشية» عن قصته «رادوبيس».. وحتى ندرك قيمة هذه الجائزة، يكفى أن تعرف أن لجنة التحكيم كانت تضم عددا من أعضاء مجمع اللغة العربية ومنهم «د. طه حسين» و«أحمد أمين» و«فريد أبوحديد».. فى هذا العام حصل «نجيب محفوظ» على الجائزة الأولى مناصفة مع الكاتب «على أحمد باكثير»، أما قيمة الجائزة فكانت أربعين جنيها أى أن «محفوظ» حصل على عشرين جنيها.

[وقد كان هذا المبلغ فى ذلك الوقت - لو تعلمون - عظيما يقارب أعراض الثراء الآن[1]].

وكان لهذه الجائزة أثرها الكبير على نفس الكاتب الطموح الذى لقى فشلا كبيرا فى نشر رواياته فى الصحف.. بل وشجعه هذا الفوز على التقدم لمسابقة مجمع اللغة العربية بروايته الثالثة «كفاح طيبة».

ويتوسط اسم «نجيب محفوظ» الأسماء الخمسة الفائزة بجائزة المجمع، وكانت قيمتها المادية مائة جنيه لكل منهم.

[وقد نتج عن حصولى على هذا المبلغ تحسن كبير فى أحوالى

(١) ص ١٥٠ من كتاب رجاء النقاش «نجيب محفوظ».

المادية، لأنه ربما كان فى وقته أكثر فائدة من «فلوس» جوائز نوبل الآن].

ويواظب «نجيب» محفوظ على الاشتراك والتقدم للمسابقات الأدبية التى تعلن عنها الجهات المختلفة.. ويتقدم لمسابقة نظمتها وزارة المعارف، ويحصل على جائزتها مناصفة مع الأديب «سعيد العريان».

وكانت هذه الجوائز فاتحة خير على «نجيب محفوظ».. فقد بدأ جمهور القراء يعرف اسمه،خاصة وأن هذه الجوائز كانت تتمتع بالاحترام والثقة.

ويلتقط الأديب الناشر «عبدالحميد جودة السحار» الخيط، ويعلن إنشاء «لجنة للجامعيين» فى عام ١٩٤٣، وكانت نواتها الفائزين الخمسة فى مسابقة مجمع اللغة العربية..

.....

.....

.....

كانت الروايات الثلاثة التى يدور موضوعها حول التاريخ المصرى القديم هى أول ما نشر «نجيب محفوظ».. وحصلت الروايتان الثانية «رادوبيس» والثالثة «كفاح طيبة» على أول جائزتين فى حياة كاتبهما.. لكن.. هل استمر الكاتب فى هذا الطريق.. طريق التاريخ المصرى القديم كمصدر وإلهام لرواياته..

لا . . لقد شعر «محفوظ» أنه يمكن أن يكون للرواية دور أعمق وأخطر فى معالجة قضايا الناس ومناقشة همومهم . . وقرر أن يتجه إلى الرواية الواقعية .

كانت النماذج الروائية العالمية التى قرأها «محفوظ» فى هذه الفترة من حياته تجنح إلى هذا النمط . . وظن هو وقتها أنه يستطيع أن يناقش قضايا الحاضر «الواقعية» بإسقاطها على أحداث تاريخية ، ولكنه شعر بإلحاح الواقع عليه .

فكتب «خان الخليلى» ثم «القاهرة الجديدة» و«زقاق المدق» و«السراب» و«بداية ونهاية» ، ثم الثلاثية «بين القصرين» و«قصر الشوق» و«السكرية» .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

ولأن ثلاثية «نجيب محفوظ» عمل متميز بالنسبة لصاحبه من جهة ، وبالنسبة لمسيرة الرواية العربية من جهة أخرى . . فإننا يجب أن نتوقف عندها قليلا .

نعرف أن فن الرواية فن غير مسبوق فى التراث العربى ، فكان لابد أن يقرأ نجيب محفوظ أكبر عدد من الأعمال الكبرى المكتوبة فى اللغات الغربية . . قرأ كثيرا . . وتعددت الأنماط الروائية التى قرأها . . واستوقفه ما يسمى برواية الأجيال - وهى عمل روائى طويل تعيش أحداثه مع أجيال متعاقبة - وقرأ «الحرب والسلام» «لتولستوى»

و«أسرة فورسايت» «لجولز ورثى» كما قرأ «آل بوندنبروك» «لتوماس مان».. وأعجب «نجيب محفوظ» بهذا الشكل من الكتابة.

وكان لابد فى البداية من اختيار الموضوع.. ولم يجد فى قرارة نفسه موضوعا أعمق من ثورة (١٩١٩)، فهو أكبر الأحداث التى عاشها «نجيب محفوظ» طفلا وصبيا ويافعا وشابا.. وهو يشعر بأن أحداث الثورة هى يوميات حياته بكل ما فيها من وطنية وثورة وطموح نحو الحرية.

أما «المكان» الذى يمكن أن تدور فيه هذه الأحداث.. فهو هذا المكان الأثير إلى نفسه «حى الجمالية».. حيث الحوارى والمقاهى والمتاجر والبيوت المتلاصقة.

وسط هذا الإطار العام، كادت الأشخاص أن تتحدد.. أبطال الرواية.. إنهم أهله وجيرانه.. أصدقاؤه وزملاؤه.. الأشخاص الذين أحبهم وشاركهم الفكر والعاطفة.. وهم فى الوقت نفسه هؤلاء الأشخاص الذين لا يحبهم ولا يتجاوب معهم.. إنهم خليط واقعى وطبيعى من البشر، الذين يسكنون حى الجمالية فى العقود الثلاثة أو الأربعة الأولى من هذا القرن.

[عمل كهذا يحتاج إلى صبر.. إلى صحة.. كل شخصية كان لها ما يشبه الملف حتى لا أنسى الملامح والصفات[1]].

نعم.. إنه عمل كبير.. احتشد له «محفوظ» واستعد.. وبدأ فى

(١) من حديث نجيب محفوظ إلى جمال الغيطانى فى كتابه «نجيب محفوظ يتذكر»

كتابته فى عام ١٩٤٨.. يعمل ستة أشهر تبدأ فى أكتوبر وتنتهى فى إبريل.. فمرض الحساسية الذى أصاب عينيه، كان يجبره على التوقف عن الكتابة طوال شهور الصيف.. سنوات أربع.. نعم أربع سنوات.. قضاها «محفوظ» معايشا لشخصيات الثلاثية.. لا يهم إن كان يمارس الكتابة أو يتوقف عنها.. فهو فى كل الأوقات يتحدث إلى الأبطال ويحركهم وينفعل معهم.. حتى انتهى منها فى إبريل ١٩٥٢.

إن أحداث هذه الرواية عاشت فى ذاكرة أديبنا منذ طفولته.. وها هى تطفو اليوم على سطح الوعى وتتحول إلى فن روائى جديد.

ألف من الصفحات.. ضمت أحداث «بين القصرين».. أمسك بها «سعيد السحار» صاحب مكتبة مصر الذى نشر أعمال نجيب محفوظ السابقة، وقال فى تأكيد:

- كيف أطبع هذه؟؟؟.. هذا أمر مستحيل.

ويحمل «محفوظ» أوراقه ويعود إلى بيته حزينا.. فكيف يضيع حلمه الذى أمضى فى تحقيقه أربع سنوات.. سنوات من العمل الشاق.. من القراءة فى المراجع.. المستندات.. من كتابة المسودات.. كيف يضيع الحلم؟؟؟.

.....

.....

وفى جلسة ضمت «نجيب محفوظ» وعددًا من الكتاب فى نادى القصة، حكى الرجل مأساته مع الناشر الذى رفض أن يطبع روايته.

ويلتقط الفنان والأديب الكبير «يوسف السباعى» الخيط، ويطلب من نجيب محفوظ الرواية لينشرها فى «الرسالة الجديدة» المجلة الأدبية، التى صدرت بعد الثورة.

وبدأت «بين القصرين» تصدر مسلسلة ولاقت نجاحا كبيرا.. وهنا يقترح «سعيد السحار» أن يتم تقسيم الرواية فى ثلاث كتب ليسهل نشرها.. واستجاب نجيب محفوظ لهذا الاقتراح.. وصدرت الرواية فى ثلاث كتب متتالية.. «بين القصرين» ١٩٥٦ «قصر الشوق» ١٩٥٧ «السكرية» ١٩٥٧.. وحققت «الثلاثية» نجاحا ورواجا لم يشهده كتاب مصرى قبله.

وتحكى هذه الثلاثية قصة أسرة مصرية.. الأب «السيد أحمد عبدالجواد» والأم «أمينة» والأبناء والبنات.. يعيشون فى شارع بين القصرين.. وتنمو العائلة بزواج الأبناء والبنات، كما تعايش الأسرة أحداث ثورة «١٩١٩» فتفقد أحد الأبناء «فهمى» أثناء مظاهرة شعبية مطالبة بالحرية والاستقلال، ومن بين شخصيات الرواية تبرز شخصية «كمال عبدالجواد»، التى يعتبرها «نجيب محفوظ» أقرب الشخصيات الروائية إلى شخصيته هو.. فهو يشابهه فى كثير من المواقف والأفكار.

وفى عام ١٩٥٧ حصل نجيب محفوظ على جائزة الدولة، وعلى

وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى، وتسلمها من الزعيم الراحل جمال عبدالناصر تقديرا لهذا العمل المتميز «الثلاثية».

ولم يتوقف الاهتمام بهذا العمل عند رواجه كعمل مكتوب، بل تجاوزه إلى تحويله إلى عمل سينمائى.. ففى عام ١٩٦٤ أخرج «حسن الإمام» «بين القصرين»، كما أخرج فى عام ١٩٦٧ «قصر الشوق»، وفى عام ١٩٧٣ قدم «السكرية».. ولاقت هذه الأعمال إقبالا جماهيريا فائقا.. مما دعا بعض مخرجى التليفزيون إلى إعادة تقديمها فى مسلسلات تليفزيونية - ملونة - منذ عدة سنوات.

هذه هى الثلاثية.. العمل الأدبى المتميز الذى كان أحد أسباب منح صاحبه أعلى الجوائز الأدبية فى العالم. «جائزة نوبل».

محفوظ..
والسينما

كان فى الخامسة عندما ذهب لأول مرة إلى سينما «الكلوب المصرى» فى «خان جعفر» المواجه للمشهد الحسينى.. كان يذهب فى صحبة الخادمة الصغيرة.. يشتريان تذكرتين بقروش قليلة ويجلسان متجاورين.. ثلاثة أفلام متتابعة.. لكنها صامتة.. نعم يتحرك الأبطال ويفهم المشاهدون قصة الفيلم.. لكن دون أن يسمعوا حوارا.

فى هذه السينما «الكلوب المصرى» شاهد «نجيب محفوظ» أفلام شارلى شابلن والشجيع وغيرها من المغامرات الفكاهية والبوليسية.

- هل يمكن أن أذهب إلى السينما وحدى.. لا ترسلى معى الخادمة، فأنا أريد أن أنام هناك لأشاهد فى الصباح الأفلام مرة أخرى.

وتبتسم الأم لحديث ابنها الصغير وتربت على كتفه، وتفهمه أن أحدا لا يمكن أن يبيت فى السينما.. ويكبر الصبى مع الأيام ويتطور الفن السينمائى.. يحرص على حضور كثير من العروض المصرية والأجنبية، شأنه شأن الشباب فى مثل عمره.

.....

.....

اهتم «نجيب محفوظ» فى مراحل حياته المختلفة بالأدب.. فقرأ وقرأ.. كثيرا.. ثم كتب.. كتب القصة القصيرة الرواية والمقال، وبدأ يشق طريقه فى هذه الاتجاه.

إلى أن كان أحد أيام عام ١٩٤٧، عندما جاءه صديقه «فؤاد نويرة».. وكان مهتما بالفن وله علاقات واسعة بين أوساط الفنانين.. قال «نويرة» «لمحفوظ»:

- هيا بنا نذهب للقاء «صلاح أبوسيف».

- «صلاح أبوسيف» المخرج السينمائى.. نحن لم نلتق أبدا من قبل.

- أعرف هذا ولكنه يريد أن يلتقى بك؛ ليطلب منك كتابة عدد من سيناريوهات الأفلام.

- وما هى السيناريوهات.. إنى لا أعرف حتى مضمون هذه الكلمة.. لا شأن لى يا صديقى بكتابة «السيناريو» إنى أكتب القصة.. الرواية.. لكن هذا الفن السنيمائى لا أعرفه.

- لا تكن عنيدا يا صديقى وهيا بنا.. لقد قرأ أبوسيف بعض أعمالك، وشعر بإمكانية أن تكتب السيناريو، وطلب منى أن أعرف كل منكما الآخر.. ثم أن هناك إغراء كبيرا.. فأجر كتابة السيناريو مبلغ لا بأس به.. هيا.

- كيف أقوم بعمل لا أعرفه يا «فؤاد».

- قال لى «أبوسيف» إنه سيتولى إرشادك إلى بعض الملاحظات.. هيا يا صديقى.

فى هذا اللقاء الأول بين «صلاح أبوسيف» و«نجيب محفوظ» تحدث «أبوسيف» عن بعض التفاصيل والملامح الخاصة بكتابة السيناريو.. وتحدث عن ملاحظات ودقائق.. و.. ثم طلب من «محفوظ» أن يكتب له سيناريو لفيلم عن «عنتر وعبلة».

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

وما هى إلا أيام ويعود «محفوظ» إلى «أبوسيف» بالأوراق فيتعجب من هذه القدرة الفائقة، ويعتبر ما فى يده «إعجازا» ويعطى صاحبه مجموعة من الكتب حول «فن كتابة السيناريو».. ويقرؤها «محفوظ» ثم يشترى مجموعة كتب أخرى حول هذا الموضوع.

. . . . . .

حصل محفوظ على مائة جنيه أجرا عن هذا العمل الأول.. وهو مبلغ كبير فى تلك السنوات.

[كان حدثا فريدا فى حياتى وفتحا جديدا أشبه بظهور «النفط» فى دول الخليج العربى].

هكذا كانت تمثل الجنيهات المئة ثروة لصاحبها فى هذه الأيام.. فهل كانت هذه الثروة سببا كى يشعر نجيب محفوظ بالسعادة.

(رغم الكسب المادى كنت أشعر ببعض الضيق فى عملى الجديد، فقد تعودت فى الأدب أن أكون أنا كل شىء فى العمل، أمضى بأحداثى وشخصياتى طبقا لرؤيتى الخاصة ودون تدخل من أحد.. أما السينما فهى عمل جماعى تحكمه أهداف مختلفة، منها ما هو فنى وما هو تجارى، وله أطراف عديدة من منتج وموزع ومخرج وممثلين، وينبغى أن ترضى كل الأطراف).

وكان على «محفوظ» أن يعادل القضية.. فاستمر فى كتابة السيناريوهات فى الوقت، الذى حرص على أن يواصل كتابته الأدبية ولم يجعل إحداهما تطغى على الأخرى.

وفيما بين عامى «١٩٤٧» و«١٩٦٣» كانت الشاشة الفضية تعرض سبعة عشر عملا يحمل اسم «نجيب محفوظ».. منها أربعة «قصة وسيناريو» وثلاثة عشر «سيناريو» عن قصص لآخرين.

ويرى الكاتب والناقد «هاشم النحاس» أن «نجيب محفوظ» كان أول من كتب «القصة السينمائية» فى مصر.. ولم يكن يعترف قبل ذلك بالقصة السينمائية عملا فنيا مستقلا، ويضم أرشيف السينما المصرية تسع قصص سينمائية لنجيب محفوظ، تضيف إلى رصيده الأدبى شكلا جديدا من أشكال الإبداع.

وتتنوع الموضوعات التى يكتب نجيب محفوظ سيناريوهات أفلامها أو قصصها السينمائية.. فمن الموضوعات التاريخية الأدبية مثل «عنتر وعبلة» إلى التاريخية الوطنية مثل «صلاح الدين» و«جميلة الجزائرية».. فى الوقت نفسه كتب سيناريوهات للأعمال الأدبية لكتاب آخرين مثل «إحسان عبدالقدوس».

أما الواقع.. فقد استثمره نجيب محفوظ استثمارا واضحا، فقدم فى عديد من أعماله «جو الحارة المصرية ومغامرات الفتوات» ومن أشهر ما قدم محفوظ من سيناريوهات مأخوذة من قصص واقعية كان أفلام.. «ريا وسكينة» عن القصة المشهورة لهاتين السيديتين المعروفتين فى الإسكندرية بأعمالهما الإجرامية، وكذلك فيلم «الوحش» الذى أخذه عن سفاح الصعيد «الخط».. أما فيلم «الفتوة» فكان تجسيدا لشخصية «زيدان» ملك سوق الخضر.

وهذه كلها شخصيات حقيقية جمع «نجيب محفوظ» مادتها من صفحات الحوادث فى الصحف، وقدم فى النهاية من تفاصيلها هذه الأفلام التى حققت نجاحا كبيرا..

.....

.....

.....

كان «نجيب محفوظ» قد أكد وجوده على الساحة الأدبية المصرية منذ الأربعينيات، عندما فاز بالجوائز الأدبية المختلفة، وكان قد استطاع أن يؤسس لفن جديد هو فن الرواية العربية.. وكان قد قدم حتى بداية الستينيات أعمالا مكتوبة مهمة إلى جانب هذه الأعمال السينمائية.

حتى عام ١٩٦٠ كان «محفوظ» قد نشر أربع روايات تاريخية «مصر القديمة - عبث الأقدار - رادوبيس - كفاح طيبة». كما نشر ثمانية أعمال ناجحة ومهمة، وهى: «القاهرة الجديدة - خان الخليلى

- زقاق المدق - السراب - بداية ونهاية - والثلاثية «بين القصرين وقصر الشوق والسكرية»..

فكيف لم يلتفت أحد من المخرجين أو المنتجين لهذه الأعمال ليقدمها للسينما؟؟ ولماذا لم يقدمها المؤلف نفسه إلى هؤلاء؟.

لا شك أن اللغة السينمائية فى مصر كانت مازالت حتى هذا الوقت من البساطة بحيث يصعب عليها تقديم الأعمال المركبة وذات المستويات المتعددة، كما هو حال أعمال «محفوظ».

وفى عام (١٩٦٤) قدمت السينما المصرية أول فيلم لها مأخوذ عن رواية «لنجيب محفوظ» بعنوان «بداية ونهاية»، وكان هذا الحدث بداية، دخلت منها السينما المصرية إلى عالم جديد من الإنتاج المتميز.

ويقول الناقد «هاشم النحاس» إن نجيب محفوظ هو أكثر الأدباء المصريين أعمالا فى السينما إلى جانب تنوع إسهاماته منها ٢٤ عملا بين سيناريو أو قصة للسينما أو إعداد سينمائى. أما الأفلام التى أخذت عن أعماله الأدبية المنشورة - قصة أو رواية فقد وصلت حتى عام (١٩٨٨) إلى ٣٦ فيلما، كما تحتل الأفلام التى كتب لها محفوظ السيناريو أو القصة أو اخذت عن أعماله الأدبية مكانة خاصة فى تاريخ السينما المصرية.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

صحيح أن الأفلام السينمائية لا تعبر بصدق عن كل أحداث الرواية.. أو القصة القصيرة.. كما أنها لا تقدم كل الشخصيات التى تعالجها هذه الأعمال.. إلا أن ضخامة الأعمال المكتوبة تحتم هذا الاختصار وهذا الاختيار، فرواية بداية ونهاية تقارب صفحاتها أربعمائة صفحة.. فكيف تضغط كل أحداثها فى ساعتين؟؟

كان على كاتب السيناريو والمخرج الذى يتعامل مع أعمال «محفوظ» أن يحافظ على الخط العام للعمل مع الاستغناء عن التفريعات، وكذلك بعض الأبطال ليقدم لنا فى النهاية فيلما «مأخوذا عن» رواية أو قصة «لنجيب محفوظ»، وهو ما رأيناه فى كل الأعمال التى شاهدناها، إذا ما قارناها بما قرأنا تحت العنوان نفسه

كانت «بداية ونهاية».. بداية بلا نهاية لأعمال «نجيب محفوظ» فى السينما.. ويكفى أن نعرف أن الشاشة الفضية قدمت له عشرة أفلام مأخوذة عن رواياته وقصصه، خلال الفترة من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٩.

أما الفترة من ١٩٧٠ حتى ١٩٧٩، فقد أخرجت لنجيب محفوظ سبعة أفلام.

ويأتى عقد الثمانينيات ليرى الجمهور ثمانية عشر عملا سينمائيا مأخوذا عن روايات وقصص «لنجيب محفوظ».